

قرأت العدد الماضي من «الأدب»

الحمية الأيديولوجية الصارمة . فالمبدع يبحث عن صوته الخاص ، في حين ان الجماعة لا تريد ان نسمع الا صوت الكل ، أي صوت الواحد . ولذلك فان ادونيس يود ان يحفر اساسه الذاتي في ارض خاصة ، ويريد مع ذلك ان يكون اساسه ذلك جزءا من اساس الثورة العامة ، على ان يظل خاصا به مع ذلك . فهو بثقف موقفه الشعري ، وينقب عن دور الشاعر ضمن ثورية اللغة والمضمون . وهو مسا زال يرفض ان يندمج في المظاهرات الشعرية .

وادونيس يصنف نفسه من بين الثوار الشعراء الذين يستهلمون حركة الثورة لا اوضاعها ، والذين يستيقنون فضايها السياسية المحنة بطرح الاسئلة الانسانية ، التي تتناول مستقبل التحول الثوري ذاته .

ولكن المشكلة في دفاع ادونيس ، ان الفوض فائم لا فيما يميزه بين الشعر الثوري الاشبه بالزي ، والشعر الثوري الحقيقي ، ولكن فيما يميز شعره هو بخاصة . فهو امر لا جدال فيه ان لدينا نوعين من الشعر الثوري ، احدهما يتناول ادوات الفخر الفليدي بالفاظ جديدة ، والثاني يحاول ان يحفر على الاسس . واما شعر ادونيس ذاته ، فاين انتماؤه ؟

هذا السؤال لا يمكن الجواب عليه هنا ، وهو كذلك لا يضير ادونيس ذاته . والمهم ان يصير الامر كله الى القراءة اولا نسم النقد ، كما نادى هو نفسه .

والقراءة القديمة لشعر ادونيس هي التي ما زال لها المثير على قراء ادونيس ونقاده ، ومن هنا آراء دكروب . والقراءة الجديدة لم تحصل بعد . ومن المسؤول عن ذلك ، ادونيس وشعره ، ام المثقفون ؟

وفي هذا الفصل كذلك يورد حلليم بركات ردا على اشارات نقدية تناولت روايته « عودة الطائر الى البحر » . وهو يجد نفسه مقحما في سجل المعركة ضد التراث او معه ، كادونيس . ولذلك يعرض مفهومه للتراث من خلال تحديرات عامة ، لا يختلف معه احد حولها . غير ان المشكلة عند بركات ، كما هي عند ادونيس ، كاملة فيما يحسه القارئ من الجو العام الذي يندرج فيه انتاج هذين الكائنين . فمن الغضب الكاسح الذي يجتاح كل شيء ، الى الانزمام بالثورة المطلقة ، ذلك هو الاحراج الذي لا بوضعه ما يكتبه ادونيس وبركات . وهو نفسه السذي يدعو الاستاذين عباس وخشبة ، في العدد الممتاز ، الى تناول النقد من زاوية الاستشعار العام ، وليس التحديد الدقيق . هذا فضلا عن ان الدكتور عباس قد التزم بالبحث حول المضمون ونقيمه فسي رواية الاستاذ بركات ، وكذلك فعل الاستاذ سامي خشبة ، حين اغفل الجانب الفني من هذه الرواية . واذا ما اهمل الفن في عمل فني ، اصبح كالفصال السياسي او الاجتماعي ، وعندئذ لا يكون للجهد الابداعي اي تأثير حسي على المضمون . ويهضم بذلك حق الكاتب او المبدع .

نصل الآن الى ما يجب ان يكون دراسة تقييمية للعقد الممتاز ، فاذا بنا تحت العنوان العام « قرأت العدد الماضي من الادب » نصطدم بعنوان يعتذر عن الاول : نظرة الى العدد الممتاز . ان ذلك يضعنا اذن على عتبة التوقع ، وهو ان كاتب هذا الباب ، عبيد الجليل حسن ، وجمال الشراقوي ، « نظرا » الى العدد الماضي الممتاز ثم . . كتب .

لقد تصدى عبد الجليل حسن خاصة السنى مقال للدكتور عصمت سيف الدولة « الوحدة العربية ومعركة تحرير فلسطين » ومقالسي

الأبحاث

و

القصص

بقلم مطاع صفدي

النظرة الاولى الى ابحات العدد الماضي ، وهو العدد الذي يلبي العدد المماز « نحو ثورة ثقافية عربية » ، يعطي انطباعا اوليا بتسدره البحث ، بمعناه الاصطلاحي . ولكن تصفح العدد يوقف القارئ على منطقات كثيرة يقص بها العدد لا بالكلم ، ولكن بالمشكلات التي تثيرها مقالات نقدية متزايدة . فالبحث اذن هنا هو النقد ، والعدد حافل بالانارات النقدية المتنوعة .

ولاهمية الموضوعات التي بشيرها هذا النقد ، فان المراجعة تقتضي تقصي هذه الموضوعات ، والدخول اليها بموقف نقدي آخر .

ان اهميتها لا ترجع الى كونها ردودا متبادلة وآراء شخصية حول قضايا فكرية خطيرة ، ولكنها الاهمية الناشئة عن مطابقة هذا السجل الكثيف لمفاهيم الثورة الثقافية ذاتها ، التي اطلقتها « الادب » منذ عددها الممتاز .

والواضح ان « الادب » شعرت بالطابع النقدي الخاص الذي يميز عددها الاخير ، فقدمت منذ صفحاتها الاولى ، ردين لادونيس وحليم بركات ، على نقد وجه اليهما سابقا .

وبالرغم من ان رد ادونيس يبدو اقرب الى المناقحة عن تعلقة شخصية ، الا انه يشير مع ذلك مشكلة اساسية في نغية القراءة والنقد بوجه عام .

انه يتوجه بعنوان شامل « ارجوكم ان تقرأوا قبل ان تنقدوا » ، وكأنه يسجل عيبا واقعيا في بيئة المثقفين الذين ، وبصورة عامة ، لا يقرأون الثقافة ! . واكثر من هذا فان النافدين لا يصبرون على استيعاب الموضوع الذي يودون تقييمه ، تحليسه ودراسته . وسوف نشهد في هذا المال مآثر كثيرة لهذا العيب المجيد ، لدى بعض كتاب العدد الماضي . أي ان ما يشكو منه ادونيس سيظل مستهرا كالكنيسة والجامع في عالم الاشياء . هذا الكلام لا يوجه الى الاستاذ دكروب ، ولكنه تعليق على المشكلة العامة التي يثير ادونيس رده الخاص من تحتها .

واذا كان ثمة ما يقال عن السجل بيسن ادونيس ودكروب ، من خلال هذا الرد فقط ، فهو ان دكروب قد اكتشف في مقال ادونيس جوا عاما من السلبية ضد التراث القديم ، من ناحية ، وموقفا مربطا بمواقف ادونيس القديمة في فصل ثورة الثقافة عن ثورة المجتمع . وبالرغم من ان ادونيس قد اعطى عبارات محددة جدا ، تنبئ عن رؤية مخالفة لما استشعره دكروب ، الا ان ذلك بدلا من ان ينفي اساسية الموقف ، فانه يحيل الى سجل آخر .

انه السجل ما بين فردية الفكر او الشاعر ، وما بين جماعية

المصائد

بقلم فوزي كريم

اللغة العربية ، والمفردة العربية ، لغة ، ومفردة صوتية ، بمعنى انها تملك طاقة استثنائية ، تضاف الى قابلية اللغة ، او المفردة كرمز من الرموز . واقول ، استثنائية ، لانها طاقة معزولة ، تستثنى عادة في استعمال اللغة ، كاداة ووسيلة (في النثر) ، ولكنها تضاف وتجيء طرفا هاما لا غنى عنه ، في عملية الابداع ، اي حين تشارك اللفظة ، لا كاداة فحسب ، بل كفاية ايضا . ان هذه الخاصة ، قد عرفت بها اللفظة العربية ، وتفردت بوضوح كعلامة فارقة ، في الشعر العربي القديم . حتى انت - بتفردا - على القيم الادبية الاخرى ، واحالت ولفترة طويلة ، المقياس النقدي ، انها مهمة جمالية - زخرفية ، قياسية .

ولقد كان الشعر ، المقر الحساس الاوفر حظا ، في معاشرة قابلية اللفظة على الحركة (سلبا او ايجابا) . بحيث تنعكس عليه . دون تأجيل ، تلك التطورات والمقاييس ، والقيم الجمالية ، حتى وصل في مهمته تلك الى طرف مسدود ، لم يستطع ان يتجاوزها بنفس الطريقة الهادئة المترفة .

وجاء الشعر الجديد .

لا كمحاولة حبيبة مترددة ، بل بقناعة وثقة وبمسؤولية ، تمثلت باصوات عديدة ، لها قيمتها التاريخية الهامة ، والذي حصل بعد ذلك ان ظاهرة الوصول الى طرف مسدود قد برزت بتأشيرها على الورق ، حتى يتساءل القارئ اذا كان الشعر في ازمة حقيقية ، ام ان قابلية الانسان العربي بعد حزيران لم تعد تحتل التحديق في الحروف الكثيثة هذه .

بالتاكيد ، لا نملك ان نهيل الى واحد من هذين ، فالامر كما يبدو اكثر تعقيدا . بالرغم من ان التسليم عادة « بالازمة » ، اصبح يشير فينا حالة من القرف وعدم التماسك .

ان ظاهرة الوصول الى طرف مسدود ، جاءت سريعة هذه المرة ، ففي الحين الذي تخطى الشعر العربي فرنا طويلا ليصل متعبا منها الى تخميسات الحلي ، وليحيل الطاقة « الجمالية » الى يدعة زخرفية ، لم يستطع الشعر الجديد الا ان يتعب ، عبر ربع قرن من الزمن فحسب - ليعيد ثانية - ولكن بشكل معكوس - لعبة « القابلية المتفردة » فقد تناسى ، في ثورته على « الزخرفية » القيمة « الجمالية » ، ولقد حطم الثانية في تحطيمه الاولى . حتى احوال المفردة الى اداة ، دون ان يلتفت الى قيمتها الابداعية كفاية ايضا .

ان الاضافة الرائجة للشعر الجديد تمثلت دون شك « بالرؤيا المعاصرة » للعالم ، « بتشكيل » هذه الرؤيا ، في الطرق الفنيصة المطروحة ، والتي تماثلت بالبدل الموضوعي ، او الرمزي ، او الاسطوري الخ . ولا غنى لعملية « التشكيل » التي هي عملية لفوية في النهاية ، عن الخاصة الصوتية للعربية .

ماذا نجد اليوم ؟

قصائد كثيرة دون شك ، ولكنها تتوقف في حدود استقلال اللغة كوسيلة ، بالرغم من الابهام بتقديم رؤيا متكاملة . لاننا نفهم تماما ان الشعر العربي عبر تخطيه وتطوره لا يمكن ان يتغافل عن الطاقة في المفردة كفاية ، ويكون في الوقت نفسه شعرا حقيقيا . معظم ما تقدمه « الاداب » لسنوات خلت حتى الان ، يؤكد هذه الظاهرة ،

وفي مناقشة الناقد لموضوعات المقال الاول ، يشير ذلك السجل القديم الجديد دائما ، بين قطبين ، احدهما ما زال يتمسك بفكرة الثورة الاقليمية ، وينتهي الى نوع الماركسية التقليدية ، التي لا تزال تستريب بالوحدة العربية . والقطب الاخر ، وهو السذي يتابع تعلقه بشورية الوحدة كمدخل الى كل ثورية اخرى اقليمية وعميقة . وعلى الرغم من ان تطور الفكر الثوري منذ سنوات قد استطاع ان يتجاوز هذه الثنائية ، بين الوجودية والتقدمية ، الا اننا ما زلنا نلجج باستمرار ، نوعا من التقهقر الى مواقف هذه الثنائية ، والعودة الى اقامة الجواز بين الشعار القومي والشعار التقدمي .

والدكتور عصمت هو احد القلائل من الكتاب الذين ما زالوا ينافحون عن الموقف الوجودي ، ويجددون تحليله بالنسبة لتحديات الرحلة الحاضرة ، وهو في ذلك لا تجرفه الموجات اللفظية ، ولا تضلله عن رؤية حتميات واقع الصراع اليومي بين الثورة العربية ، وعقباتها ، المتجددة اليوم خاصة في الصراع مع الصهيونية والامبريالية ، والنزعة الاقليمية المتجددة العناوين ، من مرحلة الى مرحلة ، ومن منعطف الى منعطف .

ان الناقد يأخذ على الكاتب منطلق المقال ، ومختلف القضايا التي يطرحها ، ولا يرى في دعوته الى تأكيد النضال الوجودي كسبيل اساسي لتحرير فلسطين ، الا خرافة ووهما ، وبحسب تعبيره ، فسان هذا الكاتب هو من اصحاب اليوتوبيا .

وانه لامر عجيب حقا ان يصبح التاكيد على الوحدة العربية وهما وضلالا ، وعيشا خارج الرحلة التاريخية ، كما يقول عبد الجليل حسن . فما الذي حدث حقا ، حتى اصبحت قضية فلسطين تناقض قضية الوحدة العربية . وان العمل للثانية ما هو الا مزايمة وتهويم في العقائديت المجردة ، وخروج من التاريخ . . هكذا !

ان عبد الجليل حسن يقول في بداية نقده ، انه ما دامت لا توجد دولة وحدوية ، فانه لا فائدة من استخدام الوحدة في معركة تحرير فلسطين . وبالتالي فانه يتصور ان العسب يمكنهم ، في حالتهم الحاضرة ، تحرير فلسطين ! ولذلك فهو يعتبر كل الكلام الذي قاله الكاتب بالامتناد الى جميع تجارب الهزيمة السابقة ، حول تكرار الهزيمة بدون الوحدة ، او وحدة النضال على الاقل ، يعتبره رهانا على الهزائم في المستقبل . فهل لدى عبد الجليل حسن مستقبل آخر بدلنا عليه بدون حد معين على الاقل من حدود النضال الوجودي ؟

واذا كنت فهمت ما كتبه الدكتور سيف الدولة ، فان الرجل ، كما اراده الناقد ، لم ينكر على شعب فلسطين حقه في النضال واسترجاع ارضه . ولكنه حذر من الاقبال في بناء الاقليمية الفلسطينية ، في وقت تبدو فيه قضية هذا الشعب ، متحدة بمصير العرب اجمعين .

ونظرة الى ما يطرح في سوق العقائديت المتهركسة داخل صفوف المقاومة ، توضح وجود هذه النزعة الجديدة ، لاجياء الاقليمية الفلسطينية « التقدمية » وتسفيه وحدة النضال العربي لتحرير فلسطين ، وابهامه بالشوقينية . .

بل ان هنالك تصميما مدروسا لدى بعض فصائل المقاومة على برمجة النضال الفلسطيني التقدمي في الاتجاه الاقليمي ، تحت غطاء الماركسية طبعاً ، التي اصبحت مرادفة للانفصالية والانقسامية ، وهي براء منها . ولقد عبر هذا التصميم عن نفسه ضمن سلسلة مشاريع مقترحة لقيام كيان فلسطيني يهودي ، غير شوقيني . ولعل الاخ عبد الجليل قد سمع ببعض هذه المشاريع ، ولعله يوافق عليها كذلك .

لست ارى الدكتور تصيف الدولة وهما او طوبانيا ، عندما يمرض امامنا سلسلة الوقائع التاريخية التي ما زلنا نعيش نتائجها . فهل ثمة التثمة على الصفحة - ٨٤ -

فماذا تعني الكلمة في هذا المقطع على سبيل المثال ، غير انها أداة نثرية للتوصيل لا اكثر :

فدوى يا المع نجمه

توهج عبر دم الشهداء

كلماتك لعنة

تنصب على هام الجبناء

كلماتك طلقة

تتفلل في كبد الاعداء

كلماتك صرخة

كم اذكت سورة احرفها عزفا وفداء.

واين هو الحد الأدنى من الجمع بين طاقة المفردة العربية ، وبين الرؤيا المعاصرة ؟ ان ما كتبه محمد النقدي « الى فدوى طوقان » لا يدفعني حتى الى التساؤل فيما اذا كان جادا في هذا ، وفيما اذا كان يضيق ، لو قابلت ابياته هذه ، بابيات تقليدية رثة ، وفيما اذا كان ثمة ما يستدعي اضافة هذا المقطع في الخاتمة - مثلا -

يا فدوى ، يا أخت الشعراء

يا فدوى لا يخرسك رصاص الاعداء

يا لحن الشهداء

قصيدة حسن فتح الباب ، تخضع لنفس الظاهرة ، فاللفة فيها مجموعة وسائل نثرية لا تنفع في شيء ، تستطيع ان تضع خلاصتها على الهامش . وتستطيع ايضا ان تقرأها دون ان تشعر بحاجة الى الحكم عليها ، فهي تنتمي الى ظاهرة الشعر الذي لا ينتظره القراء ، الشعر الذي يقال ويقال دون ان يطعم قائله بخطيه ، انه شعر الرضى، والقناعة، الشعر اندي يكتب من اطراف الشفة الباردة ، والذي يتمسك ما زال بمجد التفعيلة الواحدة ، وبانصر على الغافية العقيم . (ولعل هذا الوجه البارد السلفي المتطرف والسلفي في شعرنا الجديد هو العامل الاساس في خلق التيار المضاد المتطرف والسلفي ايضا ، الذي يدعو الى اغتيال اللفة واللعب المترف على انقاضها فليس من شك ان المواجهة المتواصلة لشبهات هذه النصوص ، الباردة ، ولهذا التساهل الفاجع مع العملية الابداعية ، سهل بدورها ضيقا مفاجئا يفجر رغبة حارة في التهديم ، وتطلقا « بدمية » ادبية دون جذور .)

ان حسن فتح الباب حين لا يتردد في كتابة هذه الابيات التي يخاطب بها الاطفال الذين استشهدوا تحت وطأة القنابل الاسرائيلية في بحر البقر :

« ستموتون .. وتحيون ... وتتنصرون

في بضع سنين .. ويكبر كل الاطفال ويفدون نساء ورجالا

وستخلى مدينتنا الطرقات ويعزف لحن العودة للابلال

وتحيون الشهداء

لا تأسوا ... فسنبقى احياء ...»

لا يملك شاب في الطرف الاخر ان يتردد ويتحد بعجده لائقا ، في كتابة « شعر جحيمي » ، لا يكتفي بتوليد المعنى من الاصوات بل يولد منها مخالب واسنانا .

في قصيدة مي مظفر « شيء بلا اسم » ، نفع على ذلك الوجه

السهل ، العائم ، والذي ينطلق من اطراف الشفة ، بالرغم من انك تتحس دفئا هنا وهناك يتخفى وراء عجز الشكل ، حتى تستطيع ان تقول بان هذه القصيدة لم تكتب بالوقت الذي كان يجب ان تكتب فيه . وكان الشاعر تحاول بتعنت بالسخ القسوة ان تثير - بكتابة الكلمات - طرفا من موافق بانث خامدة منذ زمن . انها تبدأ بهمس دافئ « لا ادري كيف احدد هذا الشيء المفهوس ، في دم القلب ..» ، ولكن الهمس سرعان ما يستحيل الى تكلف الهمس والى صخب .. والى كذب

« لو كل الاشياء نحرد

لو كل الافعال تبرر

لشكوت اليك جحيم الففز اليومي

ما بين الحب الرائع والغادي ... الخ »

وتتنظم قصيدة طارق عون الله في هذه القلادة غير البراقة ، لقد استثنيت قصيدة ممدوح عدوان « الحرب تزهو اطفالا » عن مجموع هذه القصائد بالرغم من انها القصيدة الثانية في العدد ، لان ممدوح له صوت خاص وجديد اولا ، ولان قصيدته هذه لا تنتمي الى صوته انتماء خالصا ، ثانيا ، فهي بالرغم من « الشكلية » التي يمتدها في قصائده دائما : البيتا الطويل ، الاعتماد على الغافية العفوية ... الفنائية العربية .. وبالرغم من الموضوع الذي يعتمده دائما ايضا ، تبدو هنا مجموعة من القصائد ، ان لم تكن قصيدة واحدة صغيرة ، مكررة في سبعة مقاطع . وهي عظمة القرب يحس القصيدة العمودية . فالمقاطع لا تكاد تنمو حتى تهشم ، لا باستطرادات وتشعبات في الرموز والاشارات بل بتكرار عاطفة يفرغها الشاعر من طاقتها حتى تستحيل بعض المقاطع تحت ضغط الحاحه الى قوالب لا قيمة فعلية لها في بناء القصيدة - ولقد استعملت هنا كلمة بناء مجازا - لان القصيدة بالرغم من ان البديل المستخدم يبدأ في زاوية ليتسع حتى النهاية ، تبقى مجرد مقاطع مستقلة ، غنائية ، شوهدت بناءها الداخلي عناية الشاعر الشكلية .

تنمو القصيدة في البداية نموا رائعا . تتحدث ببطء عن الحرب التي طالت والتي ترعرت على ضواها .. الحرب التي كانت لنا نهرا من الموت ، اخضعناه - بعد ان سدنا فيضه ثم لجمنا غضبه - الى جليدنا نحن : ان الصورة هنا تنمو الى ذروتها « لقد جاءتنا الحرب - الطوفان من اجل تفجيرنا فاحمدناها » .

في المقطع الثاني . يبدأ من جديد وينمو حتى نهايته .

« نحن والحرب عشيقان .. » ، ويحول بينهم وبين هذه القسوة المحفزة الخالقة المتمثلة في الحرب ، جدار الطفلة الذي يتابعهم باصرار :

« غير انا حينما سرنا اثرنا يتبعنا هذا الجدار

وغضبنا

فهجمنا ، حينما فاض بنا الياس ، وهدمنا الجدار ..

ومنذ المقطع الثالث تبدأ القصيدة تهشم تحت وقع غنائية سائبة لا يشدها غير « موضوع » لا بديل فنيا له ، فهو يتحدث في مقطع عن الحياة الومس التي ترهنا بها ، قبل الحرب ، وعن الحرب التي اصفت عليها المعنى . وفي مقطع يتحدث عن البطولة ، في الشهادة وفي تدجين الموت .. الخ ، دون ان تنتهي الى رؤيا متكاملة ، هي بالتأكيد احدى خصائص شعر ممدوح عدوان الذي قرأناه .

فوزي كريم

تتمة قرأت العدد الماضي

أوضح من ان العرب الذين خاضوا ثلاث حروب متوالية متفرقين ، وبجيوش متعددة ، قد تلفوا الهزيمة ذاتها ؟ .

وهل أوضح من ان الامبريالية في مؤامراتها انسرية المتوالية على المنطقة الشرفية ، تكافح اليوم اكبر كفاح لتعطيل قيام أي نوع من التنسيق بين دول المنطقة ؟ وماذا تمثل مأساة الجبهة الشرفية ، في رأي الاخ عبد الجليل ؟ وهذا الحديث سيطول ، ولكن الخطير في آراء الناقد ، هو اكتشافنا اننا لا نزال نصارع البيهيات . نكتشف عند كل منعطف ، وكاننا لم نتعلم شيئاً ، وكاننا محتاجون حفا الى البت : هل الدجاجة اسبق من البيضة ، أم البيضة . هل تحرر فلسطين اولا ، او نقيم الوحدة . ولكن السؤال فاسد من اساسه . اذ كيف تحرر فلسطين ونحن اولا كل منا فلسطين الضائعة ، بأسباب ضياعها . اذا كان الفلسطينيون ، وهم بدون ارض ، قد عرفوا اسباب ضياعهم ، واوجدوا مقاومتهم ، فان السوريين والاردنيين والعراقيين الخ . . . لم يعرفوا بعد اسباب ضياعهم لانهم لم يوجدوا مقاومتهم .

ولكن تفجير المقاومة الفلسطينية ، هو تفجير المقاومة العربية . ولذلك كانت المقاومة مدخلا موضوعيا تاريخيا لثورية الوحدة ، اما حينما نلح على عزل المقاومة في فلسطينية مزعومة ، ونشر في تصنيف القوى العربية وراءها ، في مراتب الدم والتأييد والاخوة . الخ ، فاننا بذلك نساهم في اغتيال جوهر الثورة الجديدة . ولا تفيد آلاف الاطنان من التحليلات اللفظية « التقدمية » حينئذ فسي طمس هزيمة الذات . وهي هزيمتنا الدائمة ، قبل ان يهزمننا عدونا .

ان الدكتور عصمت يشعر ، وله الحق في ذلك ، مع كثير ممن الثوريين العرب ، ان ثمة محاولة عن قصد او عن غير قصد ، في تقييد السعي الى الوحدة ، عن طريق وحدة النضال العربي بطليعة فلسطينية لتحرير الارض . وان هذا التقييد ينقص استخدام الجزئيات لاضفاء اهمية الكليات عليها ، لدرجة ان البعض لا يتورع عن اعتبار الشمسار الوجودي رجحيا ، او انه تخطاه الواقع النضالي . ومثل هذه المحاولة وايديولوجيتها « التقدمية » الزائفة ، هو المرض الخفيف الذي يلحق بكل مرحلة ثورية لاختفاء اصلاتها التاريخية ، وطمسها تحت موارك مصنعة .

فحين انفتح النضال العربي على المضمون الاشتراكي ، ظهر مرض الاستبدال والطمس . استبدال الوحدة بالاشتراكية ، وجعل الثانية نقيضا للاولى .

واليوم في معركة المقاومة ضد اسرائيل ، تقسوم فلسفة المقاومة ، وكانها اصبحت هي البديل عن كل شيء . في حين يدرك المنطق الواقعي الهادئ بكل سهولة ، انه ليس ثمة مقاومة قادرة على الاستمرار ، بدون تغيير بنية الواقع السياسي الخلفي لها ، والاحداث الحالية فسي المشرق العربي تبرهن على صحة ذلك كل يوم . فكلما عمق العمل المقاوم كلما فجر حوله التناقضات المنتظر تفجيرها تاريخيا ، وكلما احست المقاومة انها ليست معركة حدود منفصلة عن معركة داخل . واعداء المقاومة اليوم ، هم اعداء الثورة العربية من الامس حتى الغد . وهم الذين يرون الى المستقبل القريب . فيعدون له العدة اللازمة منسذ الآن ، بتفجير الداخل قبل الاوان في اتجاه مقاومة المقاومة ، ومن خلال فلاح الاقليميات القائمة .

فما الذي يراه عبد الجليل حسن ، ومن معه في موقفه ذلك: انسير في خط تأييد الكيان الفلسطيني بصورة نسلبه فيها في الوقت ذاته مقومات هذا الكيان ، وهو كونه صورة صراع يومي للكيان الاشمول ، وهو الوجود العربي كله المكافح معنوبا على الاقل ضد الصهيونية والامبريالية خارجيا ، والاقليمية ذاتيا وداخليا ؟

ان نظرة على اليوم الحاضر لواقع المقاومة ، ترينا المازق الخطير الذي تعانيه من محاولة تجميمها كمقاومة على الحدود بمعزل عن الداخل . وهذه المحاولة تجري بصورة مطردة مع محاولة عزل الصراع على فناء السويس عن الجبهة الشرفية . أي ان الامبريالية والصهيونية ما زالتا تؤيدان ستراتيجيتهما في عزل العرب عن بعضهم بعضا ، ومكافحة أي حد من اللقاء بين قواهم ، حتى حد التنسيق الشكلي بين الجيوش .

ذلك ان الواقع الانفصالي والانقسام والاقليمي هو المؤونة الوحيدة لخطط الاعداء ، وهو سلاحهم الموضوعي ضد أي نصر عربي . ونجسي نحن بدورنا باسم التقدميات اللفظية ، لنعطيم نفقا جديدا تحت المقاومة والنضال العربي من ورائها ، ونضيف الى فلسفة الكيانات كيانا جديدا « فلسطينيا » لن يقوم في حقيقته الا على حطام الكيانات كلها .

فمن سيصنع فلسطين العربية الجديدة ، الا القوة العربية الوحيدة التقدمية ؟ ومن اين لنا بهذه القوة ، ان لسم نشعل ثورة الوحدة الجماهيرية النضالية ، ابتداء من حرب الجماهير ذاتها ضد الكيانات المصطنعة كلها ، كيان اسرائيل وكيان الاقليميات المقطعة لاوصال الجماهير ؟

سيتهم عبد الجليل هذا الموقف بالطوباوية ، ذلك ان الوحدة العربية برأيه اصبحت مستحيلة وغير واقعية . والحاضر الثوري المقاوم يقول للسيد حسن ، ان الثورة الوجودية الصاعدة من الجماهير المقاومة في المشرق قد وجدت اسلوبها الموضوعي ، لتفرض جدليتها الجديدة . واذا ما عجزت عن فرض هذه الجدلية ، فان مصير المقاومة والثورة الفلسطينية سيصبح بعد حين اسفا على حلم ماض .

بقي ان نتساءل اخيرا لم هذا ابلتئيس من امكانية الوحدة ، ولم التوحيد بينها وبين الطوبائيات ، وما البديل عنها اذن ؟ وهل ثمة طريق لتحرير فلسطين الا بصيغة من صيغ الوحدة ؟ وما الذي يجعلنا نعتقد ان حربا ثالثة او رابعة ستدل النتائج بدون ان تكون طبيعة قوانا قد تبدلت هي ذاتها ؟

وهل ان تحرير فلسطين هدف اسهل برأي الناقد ، واقرب الى « الواقعيات » ، من هدف الوحدة « الطوباوي » ، والذي استطننا مرة ان نحقق صورة مصفرة له ؟ الا يتوقف هذا الهدف على ارادتنا ؟ نقاش البيهيات ، ومع ذلك فما زلنا نختلف حولها !

ان السيد عبد الجليل حسن ينتقل في « نظره » للعدد الممتاز ، الى تقييم سريع كذلك لمقالي عن المنهج في ثورة ثقافية عربية . فالمقال « يتعب » الناقد ، على حد تعبيره . اذ لا يجد فيه تكرارا لكل ما يكتب ويقال في الاعلام العربي . فان الكتابة التي تحاول ان تفتح بعض الزوايا الجديدة المتفاعلة مع انتيارات الثقافة العالمية الجديدة ، تتطلب بعض الجهد ، لان القارئ العربي اعتاد ان يفسر افكاره الخاصة . والسيد عبد الجليل تعب من قراءة هذا المقال ثم اعلن انه لم يجد فيه ما يستحق هذا العناء ، ولخصه بكلمة واحدة ، وهو ان « ان الكاتب اجهد نفسه واجهدنا معه لكي يقول لنا هذه القضية البسيطة » وما هي هذه القضية ، تماما على طريقة الاختزال والتعميمات الشائعة لدى كتاب الاعلام ؟ انها قضية عيش الذات ضمن الالفاظ ، او تعلق الانسان بالالفاظ دون الاشياء . تماما كما نقول ان الماركسية ، هي قضية تحرر الانسان من الاستغلال ، ولكن لماذا كتب ماركس آلاف الصفحات ، وما زال الماركسيون يكتبون آلاف الصفحات . . لانه ولانهم يريدون ان « يجهدوا انفسهم ويجهدونا » لكي يوضحوا لنا هذه القضية المعروفة والبسيطة .

ان مئات من العلماء والفلاسفة المعاصرين يعملون اليوم في توضيح اهم اداة للحضارة ، وهي اللغة ، ومع ذلك فانهم يشتغلون على قضية بسيطة ومعروفة . ومرضنا اللغوي نحن كذلك بسيط ومعروف ، وهكذا

على طريقة الاختزال دائما .

ثم ان عبد الجليل حسن يسارع كذلك لكسي يتهمني انني وقعت فريسة سحر الالفاظ ، اي فيما كنت احلله في المقال . ولماذا لانسي اضطررت الى استخدام بعض مصطلحات الفلسفات البنيوية واللغوية . ولعل السيد عبد الجليل يدرك ان اي مذهب فلسفي له مصطلحاته ، التي بواسطتها يقيم ادواته التحليلية ، وهو لو قرأ ماركس في متونه الاصلية ، لوجد كتابته غاصة بالمصطلحات الفلسفية ، ولوجده صعبا متعبا بل من اصعب الفلاسفة ، وكان قال عنه انه يجده ويتعبه ليقول له في النهاية ان الفني يسرق الفقير ! .

والناقد الذي لا يريد ان يقرأ الا تكرارا لافكاره الخاصة ، والذي شعر ان هذه الالفاظ هي من باب المصطلحات العلمية ، ولكنه يريد مع ذلك ان يرفض علميتها ، فيأتي بجملته من المقال تقوم برهانا عكسيا على ما يدعي . ويتساءل ما هي « مؤسسة الموضوعية العلمية لدى الغرب » هل يريد الناقد حقا ان اشرحها له ؟ .

ثم يناقشني الناقد حول ترجمة بعض المصطلحات ، ويفرض ترجمة معينة ارفضها بدوري اذ انها لا تؤدي المعنى الخاص الذي يريده ماركس منها . انه يقترح الترجمة العامة ، في حين لا بد من تحت الكلمة العربية الخاصة ، للدلالة على المصطلح ، وليس على الكلمة العامة . والمصطلح العربي (mass - medin) وقد ترجمتها « الكتلة - الوسيط » لان ترجمة mass هنا بالكتلة بدلا من الجمهور الصق بالهدف ، فهي تثبت صفة التلاحم المادي لهذا النوع من الجمهور الذي تسيطر عليه عقلية القطيع المسير . وكلمة « الوسيط » وهي اقرب الى المصطلح في هذا السياق ، لانها تعني الجسر الذي تعبر عليه التوجيهات ، وليست هي الاتصال ، والا لكان استعمل لها الكاتب الكلمة القريبة التي تعني الاتصال بلفظه المباشر .

المهم في هذا النقد جوه السلبي العام ، الذي يريد ان يجربنا دائما الى قوالب معينة من الفكر الجاهز ، والذي يفلق على نفسه نوافذ الثقافة العالمية التي لها كل يوم محاولة جديدة لفهم قضايا الانسان والمجتمع . وليطمئن السيد عبد الجليل وامثاله ، ان موقفه ذلك ما كان ليفت في عهد الباحثين عن رؤية اعق من مجرد تكرار الكلام المحفوظ . ولقد كان دائما ثمة ممثلون لموقفه عبر رحلة هذه السنوات الطويلة التي كان الفكر العربي يحاول فيها ان يتجاوز الفاظ المقلدين ، ليتصل بالاشياء كما هي ، وان كانت تضر بمن يهمله اخفاؤها او تجاهلها ، والحفاظ على تجهيل الآخرين .

ثم يعرض الناقد لبعض افكار اوردها السيد جورج طرابيشي في « وجهة نظر » واحتفل بها هو وزميله السيد جمال شرقاوي ، اي احتفال . ولا بد ان نتوقف قليلا اولا على ما كتبه جورج وهاجم المثقفين العرب ، وانتقى منهم ثلاثة ، هم مطاع صفدي ، ونديم البيطار ، وعصمت سيف الدولة .

اول ما يطالعنا في هذا الصدد هذا التساؤل : ولماذا هذا الانتقاد ، لأن هؤلاء الكتاب تجمعهم الدعوة الى الوحدة العربية ، لأن النزعة القومية ما زالت لها اهميتها لديهم الى جانب جميع ما ينقل ويترجم عن مختزلات الماركسية ؟ .

نحن لا نقول ان صرخة جورج طرابيشي وغضبه على هؤلاء المثقفين الثلاثة خاصة تؤلف حملة مركزة على موقفهم القومي . لان جورج قد جازر ان ينقد مباشرة اساس موقفهم . ودار حول بعض العبارات ، وانتزعها من سياقها ، بذلك الاسلوب القديسم المعروف في التجريح « ولا تقربوا الصلاة .. » ثم تقطع عن بقية السياق .

ان جورج لم يجد مثلا ما يرتكز اليه ليحكم على « هلوستنا » جميعا الا بعض هذه العبارات التي ينتزعها من هنا وهناك ومنعمدا عن سوء

نية ، بصدد كتاباتي انا خاصة ، انه يرجع الى كتاب « الثوري والعربي الثوري » الصادر منذ اكثر من عشر سنوات ، بسوم كان جورج نفسه ما زال غارفا في الفكر القومي السديمي الذي يشتمه الآن ، بعهد ان احترف ترجمة الماركسيات ، واصبح هكذا متملكا دفعة واحدة من هذا التراث ، وكانه هو صاحبه ، وهو الذي يحاكم الآن ، اي ماركس نفسه ، كتابة هؤلاء المثقفين .

اولا ان اقتطاع العبارات ، حتى التي يوردها الكاتب على لسان فلاسفة آخرين ، من سياقها ، ثم اقتطاع الكتاب نفسه من سياق تجربة الكاتب ، والحكم عليه هكذا من اولى محاولاته ، او انتاجه ، مع اهمال بقية مراحل تطوره والكتب التي اصدرها في هذه المراحل . كل ذلك يعني ان الناقد لا يقف موقفا علميا ولا موضوعيا ، ولا يتخلق باخلاق الامانة المطلوبة ، وانه يفرض القارىء ويقحمه معه في « هلوستنا » الشخصية ، ويصادر حريته ، ليجمعه تابعا لابعاداته الخاصة ، التي لا علاقة لها بالعلم او الثورة .

ان جورج طرابيشي الذي يعيش الآن فيسي بحجوة الماركسية ، وينكرها على غيره ، يساهم في كتابته هذه بفوغائية الصخب الذي تعاربه الماركسية ذاتها ، وتفترض العلمية والدقة ، لانها هي ثورة العلم في خدمة الانسان والجماعة العلمية .

ولا حاجة الآن لاعادة شرح كتاب طويل لي لارد به على جورج ، ولكنني اجتزء القول ، ان ذلك الكتاب كان دراسة اجتماعية فلسفية تهدف الى تحليل الثورة في عالم الفكر والادب ، وقد قسمت الى عدة فصول يتناول كل منها تحليل نموذج للثوري الفردي ، والاجتماعي والميتافيزيقي . وهي كلها مراحل غير زمنية ، ولكنها ايقاعات داخل تجربة المثقف العربي من ناحية ، ولها بدايات لدى المثقف العربي الثوري خلال الخمسينيات من هذا القرن .

ولقد اعتمد الكتاب اسلوب التحليل الاجتماعي والنفسى والوجودي عامة ، لكي يكشف عن البنيات الذاتية لتطور تجربة الثوري . ولا حاجة الآن لارد العبارات والمقاطع التي تبرىء الكتاب من اتهامات الناقد المتمركس حديثا . ولكن لو عاد جورج الى قراءة ماركس ، وليس الى « ترجمته » ، في متونه الاصلية ، وطالع ما كتبه حول اشكال الانسلاّب التي يعانها الانسان في ظل المجتمع الاستقلالي ، لوجده يحلل الانسلاّب السياسي والاجتماعي والديني ، ويكشف عن بنيات هذا الانسلاّب بما لا يناقض ابدا مجمل الاتجاه العام لكتاب « الثوري العربي » . ولكن جورج يجبر نصا يحلل فيه الثورة الوجودية لدى البير كامو ، على ان يكون عقيدة للكاتب ، ويتهمني هكذا بشطحة قلم اني ارفض الثوري الاجتماعي ، لانني اتحدث عن الثوري الميتافيزيقي . وجورج لا ادري ان كان يعلم ، ان الانسلاّب الديني لا بد من تخطيه ، وان مشكلة قافلة كبيرة من الكتاب الذين حملوا لواء الثورة بصورة عامة ابتداء من ديستونفسكى حتى عصر الوجوديين ، انهم كانوا يناضلون من اجل اثبات حرية الانسان اولا امام الانسلاّب الميتافيزيقي . ولعلنا ما زلنا نحن داخل مرحلة هذه المشكلة ، وان كنا لا نعبر عنها بانتاج ثقافي ، ولكننا مقودون بها حتى داخل مواقفنا السياسية .

ان جورج يمارس تشويها آخر ، وهو انه يجعل التحليل الادبي بمثابة موقف فكري يدعو له الكاتب ، وان كل ما يكتبه عن لسان مفكره او ادباء آخرين انما يتبناه الكاتب . في حين لو قصد جورج الى تحليل موقفه الفكري والسياسي حقا للجا الى كتب عديدة اخرى . ولكن المصيبة ان هذه الكتب لا تحشر اسم ماركس وعباراته حشرا ، وانما تحاول ان تحلل مراحل تطور الثورة العربية ، بأسلوب علمي كان دائما قريبا من ماركس ، ومن كل فيلسوف يرتبط اولا بتحليل الواقع . ان جورج لم يقل كلمة واحدة عن بقية الكتب كلها . وماذا تراه قرأ فيسي الكتاب المخصص لدراسة البنية الثورية الخاصة بالتجربة العربية حتى

مطلع الستينيات ، والذي عنوانه « مصير الأيديولوجيات الثورية » ، كيف لم يكتشف الهلوسة في هذا الكتاب ، وماذا عن كل ما في موقف هذا الكتاب من الدعوة الى الثورة العلمية ، وبناء الأيديولوجية العلمية ، وفهم حركة الجماهير بمنظورها المادي والصراعي . ان جورج لم يقرأ هذا الكتاب ولم يقرأ عشرات من المقالات التي كتبتها لا لكي ابشر بأفكار غيري ، ولكن لكي أطبق النظريات العلمية اولا على ما تقدمه لنا التجربة السياسية في مجتمعنا .

ان مصيبة فئة من الماركسيين الجدد انهم لم يدرسوا الماركسية اولا ، ولم يفهموا مجتمعهم تانيا ، ولا كانت لهم القدرة على المقايسة بين النظرية والتجربة . وانما اكتفوا بشرف الانتساب الى الموضة السياسية . وراحوا من موقفهم ذاك يسفهون كل ما لا يفتتح مقاله او كتابه « باسم الاله ماركس ونبيه لينين وجميع الصحابة المرسلين ! » .

أليس هو التفسير في الالفاظ ، والأشياء باقية كما هي ؟ .

وما قصدته في مقالي الجاور لوجهة نظر طرابيشي ، التسي هي الهلوسة الجديدة ردا على الهلوسة القديمة ؟

وينابع جورج مناقشة الكاتبين الآخرين بنفس الطريقة ، وهسي اصرار على عدم رؤية الموفق العام للكاتب ، وجري مقصود وراء عبارات تنتزع من سياقها « براءة » شهد له فيها زميله الماركسي عبد الجليل حسن ، والشرفاوي .

ومهما كتب طرابيشي وزمرته ، فانسي لا استطيع ان اتصور ان عصمت سيف الدولة لكونه وحديا فهو طوباوي ، وهو لا يفكر علميا . والقارئ غير المنحاز يدرك ان هذا الكاتب ، بصرف النظر عن عبارات جورج المتقطعة من هنا وهناك ، يجدد الصياغة العلمية لواقع التجربة العربية اليوم ، باوضح مما يفعل كثيرون من الذين يتسلحون بالأيديولوجية الماركسية ، ومع ذلك يظنون ينابعون رؤية عرجاء لهذا الواقع ، متعاكسة مع الماركسية ذاتها . اذ يصبرون على تقطيع اوصال النضال العربي ، والسير به عكس حركته التاريخية من الكل الى الاجزاء ، ومن المجتمع الى البيئات الاقليمية .

وليس هذا الكلام ليوجه الى طوائف اخرى من الماركسيين العرب الذين يحاولون بداب وجديفة تطبيق الفكر العلمي بشكل عام على المجتمع العربي وثورته . ولذلك لا يمكن لزمرة الماركسيين اللفظيين ان يدعوا انهم يمثلون هم الفكر العلمي الجديد ، بقدر ما يخلقون من التباس مصطنع ، اصبح يدركه القارئ العربي ، ولا يؤخذ بصخبه ولا دعوانه .

وكذلك فان حملة طرابيشي على الدكتور نديم البيطار ، تصر على اخذ بعض العبارات ، وتهمل موقفه العام . وبالرغم من انني اختلف كثيرا مع الدكتور البيطار في منطلقاته الفكرية ، الا انني لا أؤيد قيام جبر ماركسي عليه ، وانهاهه بالنازية والفاشية .

ان جورج جريا على طريقته العجيبة في تضليل القارئ ، يقطع بعض الآراء التي يوردها الكاتب لغيره ، ويلبسها للكاتب . وهو اذ يحلل في كتابه مختلف انماط الثورة ، بما فيها الثورات المضادة والثورات الدينية والصوفية ، بطريق الباحث العلمي الذي غرضه ان يعرض لمختلف اشكال الثورة ، تنويرا للعقل العربي الذي يساهم كثيرون في اغلاق نوافذ المعرفة عليه ، وحشره في دين جديد من الالفاظ والطقوس ، وكان من « براءة » طرابيشي ان اوحى لزميليه حسن والشرفاوي ، ان هذا الكاتب يدعو للفاشية ، لانه اتى على ذكرها وتحليلها في كتابه ، فاستشماط الزميلان غضبا ، وهددا بان يفصحا هذا الكاتب اذن .

وهكذا يصبح الدكتور نديم البيطار ، بكل جهوده العلمية الفنية ، التي حاول ان يفني بها الثقافة الثورية المعاصرة ، في الظروف الصعبة والحاسمة ، يصبح عدوا للشعب رقم واحد . يقول عبد الجليل « ان

هذه الأيديولوجية بظانة بالفة الخطورة لاتجاه فاشي » . ومسكين يا دكتور بيطار ! لقد كان ذنبك علميا انك حاولت ان تعطي علما اجتماعيا كاملا للثورة ، وذنبك سياسيا ، وهذا هو الاخطر لدى بعض الماركسيين ، انك وحدوي ، وانك قد اعلنت في مقال اخير لك ، انسه لا بد من الارتباط بالثورة الناصرية الوحوية !

وبعد فليعدنا القارئ بان اطلنا عليه ، فان العدد الممتاز واصداه في العدد الذي يليه ، قد اثارا مشكلات ليس لها اهمية علمية ، بقدر ما لها صلة واضحة بأمراض الاعلام الذي راح ينتقل الى الثقافة بكل غوغائية ، ليمنع نهضتنا العلمية الحقيقية ، لا بالترجمة ولا بالطقوس اللفظية ، ولكن بالمعانة والقدرة على رؤية الواقع وفهمه .

نقد القصص

قد تكون القصة العربية تتقدم ببطء ، او انها تعاني مما يشبه الشلل منذ مدة بعيدة . ولعلها وهي كتابة ابداعية قبل كسل شيء ، لا تستطيع ان تلحق بالاحداث ، ولا ان تلهث وراء المواقف الإنسانية التي لا تتبدل بسرعة تبدل الاحداث . ومع ذلك فلقد حاولت القصة ان تمنح قليلا او كثيرا من موضوع احداثنا الراهنة ، من جو النكسة والفتنة والثورة الفكرية العامة التي تجتاحنا . غير ان هذه المحاولات قد تستطيع ان تأتي بموضوعات جديدة ، ولكنها غالبا ما تعجز عن نحت رؤيتها الفنية الجديدة للعالم ، وتقصر عن ايجاد الاسلوب المتفق مع نوعية الموضوعات الملحة عليها ، من خارج الاطار الفني نفسه ، من عالم السياسة والاحداث المصرية .

واذا كانت الفدائية قد كونت موجة جديدة من الادب الذي يتناول هذا الموضوع ، فان القصة ، بعد الشعر والفكر ، ظلت في مرتبة اضعف مما حققه مثلا شعر المقاومة ، والفكر الثوري الجديد . وظاهرة طبيعية اقبال القراء على هذا الفكر والشعر ، مع تردد في متابعة الاناج القصصي الذي لم يستطع اجتذاب القارئ بمثل ما اجتذبه الشعر والفكر في هذه المرحلة .

غير ان كل ذلك لا يمنع احيانا من انبثاق عمل قصصي حقيقي ، يسترعي الناقد ، ويقراء القارئ وهو يحس حماسه القديم للقصة ، ولخصوصية تأثيرها الفني الحي الذي لا يمكن ان يعوض عنه اي نوع آخر من الكتابة .

هكذا استطيع ان اقول انني قرأت قصة الاستاذ اديب نحوي ، وانا احس حماسه مفقودة ، نستيد بي ثانية ، وندفعني الى اندماج غسوي في بنية احداثها . وجعلني فارنا اعاني ولا افكر بالمعانة ، ولا اعود الى تقييم هذه المعانة الا في فراءة ثانية .

نحن نعرف اديب منذ سنوات بعيدة ، وهو يتابع مذهبا خاصا في الكتابة القصصية . ويوم قرأت له اولى قصصه على صفحات الآداب ، اصابتني الحماسة التي اعانيها الان امام هذه القصة الجديدة . ولقد صدمت منذ البدء بان اديب اختار مذهبه بدقة وعناية . وانه لم يجد فلمه يخوض في بحر الفولكلور الشعبي عفوا ، او عن تقليد . ولكنه غاص على تجربته اليومية هو بالذات . ولماذا . لانه مثقف شعبي . ولانه يعيش دائما تفاصيل التجربة الشعبية ، لا بين الكتب ، ولكن بين الناس ، الفقراء والبسطاء من ابناء الاحياء الشعبية ، التي كانت لا ديب دائما وطنا روحيا يوميا يستمد منسه نضاله السياسي ، ومسرته الشخصية بالبراءة والغبوية ، ومعايشته لقاعدة المجتمع العربي ، من خلال مشكلات الانسان الموجود الحي . وقصته الطويلة الجديدة « عرس فلسطيني » هي ثمرة ناضجة لمذهبه القصصي ولذهبه في حياته اليومية .

فهي قصة شعبية فولكلورية ، تنبض بشاعرية الانسان الحقيقية

المأثمة بالهفة والرمز والتطلع الفامض الى مزج الحلم بالواقع، وتجاوز الميزج الى رؤيا تفسيرية شفاقة ، لا تتصاعد من الشعارات ، ولكنها تدب في عروق الحزن والتراب والنبوت من الصفيح والطين .

والقصة هذه يحاول فيها اديب ان يفيد من جميع عناصر الخلق الفولكلوري ، انه لا يكتب عن موضوع فولكلوري فحسب ، ولكنه يكتبه بأسلوب وعبارة وحس الحياة الشعبية الطبيعية ذاتها . وهو يختار لها بيئة المخيم الفلسطيني . فيحيي لنا تقاليد فلسطينية عربية . وينسج لوحة الواقع بقناطية الفن انها كتابنة شعبية ونصيحة ، تاريخية واجتماعية . وانها دراسة وفن ، وثورة . وان الكلمات هنا تخرج عن سياق تداولها ، لترصف في سياق مسن الاثارة الجزئية المتدافعة كدغدغة عميقة للنفس ، قلما يحس بها قارئ لانناج عربي معاصر .

ان اديب فرح بالناظر والاحاسيس والمواقف الشعبية ، يراهنا ينبوعا لا ينضب لاساس النضال كحال انسانية قبل ان تكون حالا فكرية او تنظيمية .

وهو يجد السلوك الشعبي ذاته غاصا بالرموز والقيم والاستحالات العذبة العبقية . ولذلك فانه يحتفل به ويفرح به ، ويجعلنا نحتفل ونفرح معه كذلك ، بنوع من المشاركة الصوفية في مهرجانات الشعب .

ان اديب لا يسعى وراء الرمز بأساليب لفظية وهمية . ولكنسه يقص علينا حقا كيف ان العرس الفلسطيني اصبح هو موت الفدائي . لقد اذهلته حادثة الزغردة عندما يتسلم ابنساء المخيم نعش الفدائسي المقتول . فالتمت في ملحمة الفدائية هو العرس .

ولكن الكاتب يجسم لنا بانفعال وصدق ملحمة الفلسطيني كلها . ويجمع ما بين عمق المأساة الواقعية لحياة المخيم ، ومسا بين عناصر التفسير الكيانية التي طرأت على هذه المأساة ، لتجعلها مدخلا تاريخيا ووجدانيا حاملا للثورة الفدائية .

فلقد استطاع اديب ان يقنعنا بحرارة وإيمان ، ان جميع العادات اليومية ، وحتى الطقوس الشعبية ليست كلها عقبات امام الثورة ، ولكنها طاقات من القوة والارتباط بالمعاني الاساسية للانسان تفيد في معركة الثورة ، ان اتيح لها التحريض المناسب .

لقد احيا الكاتب مختلف مراحل العرس العربي ، الفلسطيني ، البصاوي - نسبة لقرية البصة الفلسطينية - وفجر تفاصيله وإيماءاته المكررة ، عن قدرة ثورية حقيقية تربط فعلا باعمق صور التراث الشعبي والوطني ، الذي ليس عقيمة - كما يحاول البعض ان يصوره - ولكنسه مصادر تحرر بالفعل لا باللفظ .

والكاتب لم يصف لنا هذه العادات والطقوس من الخارج ، فلقد تجاوز معرفتها العلمية، واستنطن طاقاتها على الابناء والتفسير والتجاوز الانساني لواقع الانسلاخ والمهانة . فكتب وفكر وصور شعيبا ، ومن داخل عضوية الطقوس والرموز الشعبية ذاتها . وجال بين روائع هذا العالم البريء ، فلم يخترع الرموز ، ولكنه صادفها فأبرزها واغناها . وجعلها تتنامي كلها ضمن نسج واحد مزدوج البطانة ، وبطانة الرموز الحقيقية كما هي في عضوية التجربة الطقسية ، وبطانة الرموز التي يصفها الكاتب اكثر واعمق على مادة الرمز الاصلية والعفوية .

فالأجئون اصبحوا يزغردون كلما استقبلوا شهيدا جديدا لهم . ولكن الكاتب فجر هذا الرمز الطبيعي المباشر ، بأن ينسى الملحمة الفلسطينية كلها على اساس طقس الزغردة ، وتقاليد العرس القروي ، وجعلنا نحس ان العروس هي واهلها وجيرانها يتوبون ليس عن الشعب الفلسطيني ، ولكنهم يتصاعدون حقا الى مستوى الفاجعة الانسانية الشاملة .

وذلك ما كان ينقص دائما كتابة القصة الملتزمة . اذ ان اكثر

كتابها جروا على عادة استخدام الاشخاص والاحداث كرموز عن اشياء اخرى ، دون ان يستظيخوا اكتشاف اصالة الرمز اولا وهو في سياق التجربة الفعالة ، ودون ان يقدروا على جعل ما يرمز اليه ، هو الشروط المكونة للفاجعة الانسانية الشاملة .

لقد وصف الكاتب نماذج الاب والام والعروس والعريس الغائب ، وعودته ميتا حيا ، واشياء هؤلاء الناس ولمحات من حياة المخيم ومآسيه اليومية . ولكنه لم يصف ، وانما احيا ، وجعلنا نحيا كل ذلك معه ، على مستوى الواقع والرمز معا .

واذا كان الكاتب يفرق احيانا في استخدام اللهجات والتعابير والاهازيج الفولكلورية ، فانما عذره انه يحب ما يكتب ، وأنه يفرح بهذه الكشوف الانسانية ، ويجعلنا نكتشفها معه .

ومع ذلك فان اديب حاول الا يعرض لنا مادته الدسمة تلك الامن خلال تقنية فنية رقيقة ، غير مفروضة فرضا ، ولكنها متنامية مع عضوية هذه المادة ، ومتغلغلة فيها بدقة وحساسية الفنان المسك بزمام صنعته .

ان اديب قد يبالغ ويضخم وينجرف احيانا مع شاعرية الطقوس، ويجعل لثقل هذه الجوانب الثانوية أهمية فعالة على مجمل الكيان الفني . وهو لا يوفق بذلك دائما . وقد تبدو بعض الماطع وكأنها نشر فني منفصل عن فعلية القصة .

الا ان كل ذلك لا يقلل من قيمة هذا الاثر . انه متعة وكشف وثورة .



يكتب حيدر حيدر قصة يريد ان يجمع فيها بعض احاسيس ضياع « جديد » ، ويؤلف في مجال من التجريد المحض مناخا غير فعال ، لتلك الاحاسيس . ويبدأ قصته وهو لا يدري بالضبط ما يريد ان يكتبه، الا جوه الكئيبة ذاته . وهنا ترجع القصة الى نموذج لوحية ذاتية . وبالرغم من انه قد اعطى لكاتبته هذه لونا خاصا هو الحياء ، فانه لم يتم شففا متكاملًا حول هذا اللون . وبقي ما يكتشفه قليل الحماسة، لا يصل الى وعي القارئ .

وأما قصة السيد عبد الستار ناصر ، فان لها مطمحا رمزيا واسعا، حاول فيه الكاتب ان يعيد استثمار موضوعه البحث عن استنسان ضائع خارج الكاتب ، قد يكون هو الكاتب نفسه او لا يكون . وعندما وضع له اسما هو شريف نادر ، فكانه لخص القصة في البحث عن شريف نادر . غير ان هذا الرجل الذي اعطاه صفة القتل والجريمة ، بقي في النهاية فامض الدلالة .

اذ ان القصة وضعتنا عند حدود اوصاف نفسية لم تسفر عن تقنية معينة ، تؤدي بنا في النهاية الى مضمون فني او انساني بارز العالم .

وتبدو قصة أم الوز خطوة موفقة في المطابقة بين لوحة من الحياة الشعبية ، هذه المرة الحياة في البداية ، وبين بعض الابعاء الثورية . ولكنها تظل اقرب الى الرمز السياسي المباشر ، عندما تقص قصة البحث عن الماء للخراف العطشة ولا ماء الا وراء الحدود .

بقي ان نتساءل اخيرا- لم هذا التيهيس من امكانية الوحدة ، ولم اديب نحوي . وهي واحدة من رموز التقدم المبدع في حقل القصة .

مطاع صفدي